مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية
Journal of Social Sciences and Humanities
المجلد: 15/ العـدد: 02 (2025)،
ص 366 –385

دعائم نجاح المشروع المهدوي لابن تومرت (ت. 524هـ/1130م) – قراءة في الأساليب وفعاليتها في ضوء النصوص المصدرية -

The pillars of the success of the Mahdi project by Ibn Toumart (d. 524 AH/1130 AD) -Reading in the methods and their effectiveness in light of the source texts .-

Tarek benzaoui

طارق بن زاوي[1]*

أستاذ التعليم العالي جامعة محمد بوضياف المسيلة[1]

tarek.benzaoui@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2024/09/21 تاريخ القبول: 2025/06/25 تاريخ النشر: 2025/12/15

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على دور الدعاية الموحدية في تشكيل الرواية التاريخية المحيطة بادعاء ابن تومرت المهدية، وذلك من خلال تحليل نقدي للمصادر التاريخية لا سيما الموحدية منها والذي من شأنه أن يضفي على الطرح العلمي لموضوع كهذا شيئا من الموضوعية في ظل الخلاف القائم حول شخصية محمد بن تومرت قديما وحديثا بين المؤرخين، كما يحاول المقال وضع الحوادث في سياقها التاريخي الصحيح بتحليل الأساليب والطرائق المستخدمة في تعزيز وتبرير وشرعنة ادّعاء المهدوية وما نتج عنها من طرف صاحب الدعوى نفسه ثم أتباعه من بعده. ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث أنّ الدعاية السياسية التي روجت لفكر ابن تومرت وصوبت أعماله لجأت إلى التضليل والخداع والكذب وتشويه الوقائع وإخفاء الحقائق ووسائل أخرى كثيرة غير مقيدة بضوابط أخلاقية أو شرعية من أجل تبرير دعوى المهدوية والإيمان بصاحبها ومن تمّ التسليم له والإنقياد المطلق لتعاليمه.

كلمات مفتاحية: محمد بن تومرت، الدعاية الموحدية، المهدوية، الموحدون.

* **المؤلف المرسل:** طارق بن زاوي، **الإيميل:** tarek.benzaoui@univ-msila.dz

Abstract:

This article aims to shed light on the role of Almohad propaganda in shaping the historical narrative surrounding Ibn Tumart's claim to the Mahdi, through a critical analysis of historical sources, particularly Almohad ones. This would give a certain objectivity to the scientific presentation of such a sensitive subject in light of the existing debate on the personality of Muhammad ibn Tumart in the past and present among historians. The article also attempts to place the incidents in their correct historical context by analyzing the methods and means used to strengthen, justify and legitimize the claim of Mahdism and what resulted from it by the claimant himself and then by his followers after him. One of the most important conclusions of the research is that the political propaganda that promoted the thought of Ibn Tumart and corrected his actions resorted to misinformation, deception, lying, distortion of facts, concealment of facts and also other means that were not limited by moral considerations or legal controls in order to justify the claim of Mahdism and the belief in its promoter and absolute obedience to its teachings.

Keywords: Muhammad ibn Tumart, Almohad propaganda, Mahdism, Almohads.

Résumé:

Cet article vise à mettre en lumière le rôle de la propagande almohade dans l'élaboration du récit historique entourant la revendication du Mahdi d'Ibn Tumart, à travers une analyse critique des sources historiques, notamment almohades. Ce qui donnerait une certaine objectivité à la présentation scientifique d'un sujet aussi sensible à la lumière du débat existant sur la personnalité de Muhammad ibn Tumart dans le passé et dans le présent parmi les historiens. L'article tente également de placer les incidents dans leur contexte historique correct en analysant les méthodes et les moyens utilisés pour renforcer, justifier et légitimer la revendication du Mahdisme et ce qui en a résulté par le prétendant lui-même puis par ses partisans après lui. L'une des conclusions les plus importantes de la recherche est que la propagande politique qui a promu la pensée d'Ibn Tumart et corrigé ses actions a eu recours à la désinformation, à la tromperie, au mensonge, à la déformation des faits, à la dissimulation des faits et aussi d'autres moyens qui n'étaient pas limités par des

considérations morales ou contrôles juridiques afin de justifier la revendication du Mahdisme et la croyance en son promoteur et l'obéissance absolue à ses enseignements

Mots-clés : Muhammad ibn Tumart, propagande almohade, mahdisme, Almohades.

- **مقدمة**

يعدّ محمد ابن تومرت (ت 524ه) من الشخصيات التاريخية التي أثارت أفكاره العقدية الجدل كثيرا بين المؤرخين قديما و حديثا، فقد سعى سعيا حثيثا من أجل تأسيس دولة له متوشحا بثوب الهداية مدّعيا أنّه المهدي الذي ورد ذكره في أحاديث نبوية كثيرة، و قد مهّد ابن تومرت لهذا الأمر بين قومه و أنصاره منذ عودته إلى بلده قادما من المشرق، و اعتمد في ذلك على دعاية تنوعت أساليبها، و قد حفلت المصادر التاريخية بتسجيل صور كثيرة من صور هذا الدعاية، و هذا ما قد يضفي الكثير من المصداقية على ما جاء فيها من أخبار وحوادث، كما تسلط هذه المصادر الضوء على حقيقة دعوى ابن تومرت المهدوية و دورها في تبرير و مشروعية هذه الدعوى و ما قام به من أعمال و تضعها في سياقها التاريخي الصحيح، و تقرّبنا بشكل كبير من فهم كثير من الحقائق.

والإشكالية الرئيسية في موضوع الدعاية الموحدية وأساليبها يمكن طرحها في التساؤل التالي: ما هي أهم الأساليب الدعائية التي اتبعها من أطلقوا على أنفسهم اسم الموحدين وعلى رأسهم ابن تومرت في سبيل الوصول إلى إثبات وتصديق دعوى ابن تومرت المهدوية؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية فقد انتهجت المنهج التاريخي الذي يقوم بإحياء الأحداث التي حصلت في الزمن الماضي، وذلك من خلال جمع البيانات المطلوبة وتحليلها والتأكد من صحتها، وبعد عرضها بشكل دقيق قد نصل إلى براهين تظهر نتائج علمية واضحة.

وتكمن أهمية الموضوع في تحليل الأساليب المستخدمة في تعزيز تصديق وإيمان أنصار المهدي ادّعاءه المهدوية من خلال دراسة ونقد المصادر التاريخية، وفي مقدمتها المصادر الموحدية التي كتبها أنصار الدعوة التومرتية لعل في مقدمتها كتاب أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين لمؤلفه البيذق (ت بعد 558ه) صاحب ابن تومرت ومعاصره، مما يعطي الموضوع طابع الموضوعية في العرض والمصداقية في الطرح.

1. مولد ونسب محمد بن تومرت (ت. 524ه/1130م):

اختلفت المصادر في تاريخ ميلاد ابن تومرت، فقد حدّده ابن خلكان بيوم عاشوراء من سنة 485ه/1092م (ابن خلكان، دون تاريخ، ج5، 53)، أمّا ابن الخطيب فقال إنّ محمد بن تومرت كان مولده سنة 486ه/1092م (ابن الخطيب، 1898، 57)، وابن القنفذ قال إنّ مولده بهرغة سنة 471ه/1078م (ابن القنفذ، 1968، 99). وذكر الزركشي إنّه ولد سنة 491ه/1097م (الزركشي، 1966، 4)، وفيما يتعلق بمكان مولده فقيل إنّه وُلد بالسوس بأقصى المغرب بضيعة تعرف بإيجلى أن وارغن (عبد الواحد

المراكشي، 2006، 136)، وقال ابن القطان إنّـه ولد بموضع يسمى نومكران، وهـو موضع لا ماء فيه وإنّما يشرب أهله ماء المطر وهناك داره، وعن صفته فقد كان ربعة مفلج الثنايا قليل اللحية، في خنصر إحدى يديه شبه الخاتم من اللحم، حصور لا يأتي النساء (ابن القطان، 1989، 90).

وأمّا نسب محمد بن تومرت فقد دار حوله جدل كبير بين المؤرخين و لا يزال ممتدا إلى أيامنا هذه، فبين مؤيد لما ادّعاه من نسب شريف و منكر لهذا النسب و أنّه منتحل و سبب ذلك أغراض سياسية، و من القائلين بنسبه الشريف مؤرخو الدولة الموحدية و منهم ابن القطان الذي قال عنه (ابن القطان، 1989، 87):"هو محمد بن عبد الرحمان بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، و قيل مثل ذلك سواء إلى عدنان فنسب هكذا عدنان بن صفوان بن جابر بن يحي بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب". وأمّا البيذق الذي كان مرافقا لابن تومرت في رحلته من المشرق إلى المغرب فقال (البيذق، 1971، 12) : "إنّه محمد بن عبد الله بن وكليد بن يامصل بن حمزة بن عيسى بن عبيد الله بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن فاطمة بنت رسول الله، هذا نسبه الصحيح". وأيّد عبد الرحمان بن خلدون في تاريخه نسبه الطالبي الهاشمي الحسني في تاريخه وأنّه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ابن خلدون، 2000، ج6، 301).

أما ابن أبي زرع فيظهر أنّه لا يثق في نسبة ابن تومرت إلى آل البيت وهذا واضح في كلامه حيث قال: "إنّه دعيّ في هذا النسب وهو رجل من هرغة من قبائل مصمودة يعرف بمحمد بن تومرت الهرغي"(ابن أبي زرع، 1972، 172). ومن المؤرخين المشارقة الذين قالوا بأنّ ابن تومرت لا تصح نسبته إلى آل البيت المؤرخ الذهبي الذي قال: "إنّه محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي المدّعي أنّه علوي وأنّه المهدي، جرّه إقدامه وجراءته إلى حب الرئاسة والظهور ودعوى الكذب والزور من أنّه حسني وهو هرغي بربري، وأنّه إمام معصوم" (الذهبي، 1985، 42).

ومن المعاصرين الذين دافعوا عن نسب ابن تومرت الشريف نجد الدكتور عبد المجيد النجار حيث ردّ على من أنكر نسب ابن تومرت الحسني مدعيا أن هذا الإنكار لم يكن موضوعيا ودليله أنّ المنكرين ركزوا على بيان سبب انتحال ابن تومرت النسب الشريف و لم يركزوا في بيان سبب فساد النسب في ذاته (النجار، 1983، 27)، وأضاف النجار مدافعا عن نسب ابن تومرت الذي ادّعاه أنّ له ما يؤيده من المبررات الشيء الكثير عكس ما عليه من النواقض، و أنّ المعترضين عليه يفتقدون إلى الأدلة المقنعة (النجار، 1983، 30).

وأمّا الدكتور محمد عبد الله عنان فهو من المحدثين الذين أنكروا نسب ابن تومرت الذي ادّعاه ورأى ذلك حقيقة لا تقبل ذرة من جدل، وأنّه بربري الجنس من هرغة ومصمودة(عنان، 1990، 159)، و

ما هذا النسب العربي الشريف إلا ادّعاء باطلا الهدف منه دعم صفة المهدي التي انتحلها خدمة لأهدافه الدينية والسياسية (عنان، 1990، 160).

والذي يترجح حول حقيقة نسب ابن تومرت أنّه باطل، فلقد نقلت في بداية الكلام عن ابن تومرت أقوالا كثيرة تتعلق بنسبه، فالمثبتون له نراهم يتفقون أنّه حسني النسب، و هو ادّعاء يشوبه الكثير من الشك والريبة عمّقه تضارب طرقه في كتب أنصار الدعوة الموحدية الأولين واللاحقين، ومن الأدلة التي استدل بها مؤيدو نسب ابن تومرت الشريف قول ابن خلدون إنّ الناس مصدقون في أنسابهم (خلدون، المقدمة، ص36) يلزمه تصديق كل أدعياء النسب الشريف، و قد ذكر كثير منهم في كتابه و لم يُسلِّم لهم بذلك ، فقد قال عن صاحب الزنج إنّه انتحل النسب الشريف و ادّعاه و ليس من أهله (خلدون، كتاب العبر، ج4، ص24).

2. رحلة محمد بن تومرت إلى المشرق الإسلامي:

ارتحل محمد بن تومرت إلى الأندلس لطلب العلم على رأس المائة السادسة الهجرية، ودخل قرطبة ثمّ مشى إلى المرية فدخل منها في مركب إلى المشرق (القطان، نظم الجمان، ص62)، ولقي هناك جملة من الشيوخ منهم الطرطوشي (ت520ه) بالإسكندرية (مجهول، الحلل الموشية، ص104)، ودخل بغداد ولقي فيها أبا بكر الشاشي(ت507ه) فأخذ عليه شيئًا من أصول الفقه وأصول الدين، وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار(ت500ه) ونظرائه من المحدثين، وقيل إنّه لقي أبا حامد الغزالي بالشام (المراكشي، المعجب، ص136)، ولم تصلنا أخبار كثيرة عن رحلة ابن تومرتية المشرقية هذه، فأغلب من نتاولها ذكرها باختصار شديد، وأقدم مصدر موحدي بين أيدينا الآن وهو كتاب البيذق أخباره تبدأ من تاريخ عودة ابن تومرت من الإسكندرية إلى بلاد المغرب. ولعل أهم ما حاولت المصادر الموحدية التركيز عليه في هذه الرحلة هو رواية لقاء ابن تومرت بالغزالي، فقد حكي أنّه ذكر للغزالي ما فعل أمير المسلمين بكتبه التي وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها، وابن تومرت حاضر ذلك المجلس، فقال الغزالي حين بلغه ذلك:" ليذهبن عن قليل ملكه، وليُقتلن ولده، وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضرًا مجلسنا!"، وكان ابن تومرت يحدث نفسه بالقيام عليهم فقوي طمعه (المراكشي، المعجب، ص136).

وهذا اللقاء اختلف فيه المؤرخون قديما وحديثا كاختلافهم في نسبه، فبعضهم أثبته وبعضهم نفاه، فدعاة وأنصار المهدي قديما وحديثا قالوا بأنّ ابن تومرت قد لقي الغزالي الذي دعا على المرابطين بأن يمزق الله ملكهم كما مزقوا كتابه، وإنّ ذلك سيكون على يدي ابن تومرت بعد دعاء الغزالي المستجاب الدعوة له بذلك (القطان، نظم الجمان ، ص74) ، ومن المتأخرين الذين أثبتوا هذا اللقاء ابن أبي دينار حيث أضاف على من سبقه أنّ ابن تومرت لزم الغزالي ثلاث سنين كاملة وتنبأ لهذا الفتى البربري بأن تكون له دولة، مضيفا أنّ هذه النبوءة موجودة في كتاب عند الغزالي وقد أَطْلَعَ عليه ابن تومرت (ابن أبي دينار، 1869، 107)، ولم يُبيِّن لنا ابن أبي دينار صنف ولا عنوان هذا الكتاب، وقيل إنّ ابن تومرت اطلّع من

علوم أهل البيت على كتاب يسمى الجفر يقال عن أصله أنّ هارون العجلي رأس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص، وكان مكتوبا عند جعفر في جلد ثور صغير فرواه عنه هارون العجلي وكتبه وسمّاه باسم الجلد الذي كتب فيه وصار هذا علما على هذا الكتاب عندهم، وهذا الكتاب لم تتصل روايته، و إنّما يظهر منه كلمات شاذة ليس لها دليل (ابن خلدون، المقدمة، صفحة 415)، وأنّ ابن تومرت رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمى السوس وهو من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويجاوز وقته المائة الخامسة، فأوقع الله في نفسه أنّه القائم بأول الأمر وأنّ أوانه قد أزف (ابن خلكان، دون تاريخ، ج5، 47).

وممّن أنكر هذا اللقاء المؤرخ ابن الأثير حيث قال: " وَقِيلَ إِنَّهُ جَرَى لَهُ حَدِيثٌ مَعَ الْغَزَالِيِّ فِيمَا فَعَلَهُ بِالْمَغْرِبِ مِنَ التَّمَلُّكِ، فَقَالَ لَهُ الْغَزَالِيُّ :إِنَّ هَذَا لَا يَتَمَشَّى فِي هَذِهِ الْبِلَادِ، وَلَا يُمْكِنُ وُقُوعُهُ لِأَمْثَالِنَا،كَذَا قَالَ بَعْضُ مُؤَرِّخِي الْمَغْرِبِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لَمْ يَجْتَمِعْ بِهِ، فَحَجَّ مِنْ هُنَاكَ وَعَادَ إِلَى الْمَغْرِبِ" (ابن الأثير، ج8، ص195).

ولم يلبث ابن تومرت أن عاد إلى بلده، فقد انطلقت رحلة عودته من الإسكندرية لتبدأ معها فصول الدعاية لهذا الرجل الذي وصفه ابن خلدون الذي يعتبر أحد أشهر المعجبين به والمنافحين عنه بالبحر المتفجر من العلم والشهاب الواري من الدين (ابن خلدون، ج6، 302)، وقد حشا الموحدون أخبار هذه الرحلة بسيل من الأخبار والحوادث التي يستنتج منها القارئ أنّ الأرض قد تهيأت فعلا لظهور المهدي وأنّ أوانه ووقت ظهوره قد حان، وحسب المصادر الموحدية فقد جرت لابن تومرت في الإسكندرية وقائع في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أفضت إلى أن نفاه متوليها عن البلاد فركب البحر (عبد الواحد المراكشي، 2006، 137)، وعند ركوبه مركبا رأى فيه خمرا فأراقه فصاح عليه صاحب الخمر وسبّه، فاجتمع أهل المركب إليه ورغبوه حتى سكت، ثمّ حضر وقت الصلاة فأمرهم بالصلاة فلم يلتفتوا فشدّد عليهم فغضبوا وهمّوا بإلقائه من المركب فهال عليهم البحر وكادوا يغرقون، فقام إليهم رجل حاج فقال لهم تداركوا أنفسكم بإرضاء هذا الرجل لعلّ الله يفرّج عنكم، فأقبلوا نحوه متضرعين راغبين فقال لهم صلوا، فتوضؤوا و صلّوا فكشف الله ما بهم و جرت السفينة بريح طيبة فصاروا يطلبون منه الدعاء كل يوم (ابن القطان، 1989، 92).

وأول دخول ابن تومرت إفريقية أنّه حل بطرابلس معنيا بمذهبه في الإعتقاد على طريقة أهل الكلام مظهرا النكير على علماء المغرب في عدولهم عنه، آخذا نفسه بتدريس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع حتى لقي بسبب ذلك أذيات (ابن خلدون، ج6، 302)، ومرّ بالمهدية فغيّر المنكر بها في مدة صاحبها علي بن يحي بن تميم بن المعز الصنهاجي (ت 515هـ/1121م) (الزركشي، 1966، 4)، وجلس في شارع ينظر المارة فلا يرى منكرا من آلات الملاهي أو أواني الخمر إلا نزل إليها وكسرها، فتسامع الناس به في البلد فجاءوا إليه وقرأوا عليه كتبا من أصول الدين، وبلغ خبره الأمير فاستدعاه مع جماعته من

الفقهاء، فلمّا رأى سمته وسمع كلامه أكرمه وأجلّه و سأله الدعاء (ابن خلكان، ج5، 47)، ثمّ ارتحل إلى تونس، ويروي البيذق أنّ ابن تومرت حضر جنازة رفض الناس الصلاة عليها بحجة أنّ الرجل يهودي لكنه كان يصلي، وطلب من الناس الشهادة على ذلك، فلمّا فعلوا أخبرهم أنّهم قد شهدوا له بالإيمان وصلّى عليه (البيذق، 1971، 11)، ثمّ خرج ابن تومرت من تونس مع ثلاثة من رفاقه هم يوسف الدكالي والحاج عبد الرحمان وأبو بكر الصنهاجي البيذق متوجهين إلى قسنطينة، وفي هذه المدينة يحاول البيذق إظهار أهلها وعلمائها بأنّهم جهلة لا يعرفون إقامة الحدود كحد السرقة (البيذق، 1971، 12) الذي أكاد أجزم أنّه الحد الأكثر انتشارا بين عامة المسلمين فضلا عن علمائهم في كل عصر ومصر.

وعندما حلّ ابن تومرت ببجاية وجد بها أيضا منكرات كثيرة كتشبه الرجال بالنساء في لباسهم واختلاط الرجال بالنساء، فلما رآهم دخل فيهم بالعصا يمينا وشمالا حتى بدّدهم ، ثمّ سار الى ملالة فبنى له أهلها مسجدا وأقبل الطلبة يصلون إليه من كل مكان، فلما كان في بعض الأيام دخل المدينة حتى وصل باب البحر فأهرق به الخمر (البيذق، 1971، 13)، وفي قرية ملالة هذه قرب بجاية سيلتقي ابن تومرت بعبد المؤمن بن علي ليجعله أخلص أتباعه وأقربهم إليه، وقد جاءت رواية البيذق المعاصر لهذا اللقاء في سياق خبر كاهن يدّعي معرفة الغيب وليس عالم وصفه ابن خلدون بالبحر المتفجر من العلم، فقد أخبر ابن تومرت أتباعه بموعد وصول عبد المؤمن إلى هذه القرية قبل يوم كامل وقد حار الناس في أمره، وزاد تعجبهم لمّا عرف ابن تومرت اسم والد عبد المؤمن ومكان إقباله، وتمضي الرواية في نسجها الكهنوتي لتؤكد نبوءة ابن تومرت بأنّ الأمر الذي فيه حياة الدين لا يقوم الا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين (البيذق، 1971، صفحة 16)، وبعد خروج ابن تومرت مصطحبا معه عبد المؤمن بن علي وغيره من اتباعه دخلوا تلمسان وبها كغيرها من المدن المنكرات، فقد وجد بها عروسا تزف لبعلها وهي راكبه على سرج واللهو والمنكر أمامها، فكسر الدفوف واللهو وغيَّر المنكر وأنزلها عن السرج (البيذق، 1971، 20)، وعندما وصلوا وجدة تتكرر ظاهرة اختلاط الرجال بالنساء، فأمر ابن تومرت أهلها بتغيير هذا المنكر (البيذق، 1971، صفحة 21)، ولم يطل به المقام طويلا حتى وصل العاصمة مراكش والتقى بأمير المسلمين علي بن يوسف (ت537ه) (المراكشي، المعجب، ص139)، فرأى فيها من المنكـرات فزاد في أمره بالمعروف و نهيه عن المنكر فكثر أتباعه (ابن الأثير، ج9، ص196)، فلما تطاير خبره جمع له على بن يوسف الفقهاء للمناظرة فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول حاشا اسمه مالك بن وهيب كان قد شارك في جميع العلوم(ت525ه)، ولما سمع كلام ابن تومرت استشعر حدّة نفسه و ذكاء خاطره و اتساع عباراته فأشار على أمير المسلمين بقتله، وقال:" هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، وإن وقع هذا في بلاد الصامدة ثار علينا منه شر كثير"، فتوقف أمير المسلمين في قتله فأشـــار عليه بسجنه حتى يموت ، فقال أميـــر المسلمين : "و هل السجن إلا أخـــو القتل ؟ و لكن نأمره أن يخرج عنا و ليتوجه حيث شاء" (المراكشي، المعجب، ص140).

فسـار حتى التحق بالسوس الذي فيه قبيلة هرغة و غيرهم من المصامدة سنة 514هـ/1120م، فأتوه و اجتمعوا حوله و تسامع به أهل تلك النواحي فوفدوا عليه و حضر أعيانهم بين يديه (ابن الأثير، ج9، ص196)، وادّعى أنّه المهدي المنتظر، وحسب ابن القطان فإن بيعة الإمام المهدي كانت إما في سنة 514هـ/1120م على قول و إما في سنة 515هـ/1121م على قول آخر (ابن القطان، نظم الجمان ، ص123)، وبادر إليه عشرة من رجاله في مقدمتهم عبد المؤمن بن علي فبايعوه على ذلك (ابن القطان، نظم الجمان ، ص125)، وسُمي هؤلاء بالعشرة، و هم عبد المؤمن بن علي و أبو محمد البشير الونشريسي و أبو إبراهيم الهزرجي و أبو حفص عمر بن علي الصنهاجي و أبو الربيع سليمان بن الحضري و أبو عمران موسى بن تمارا و أبو يحي أبو بكر بن يجيت و أبو عبد الله محمد بن سليمان و أبـو حفص عمر بن يحي و عاشرهم عبد الله بن ملوية، وهؤلاء العشرة المسمّون بأهل الجماعة، و تابعهم على هذا المعتقد بأثرهم خمسون رجلا فسموا أهل خمسين، ثمّ تابعهم سبعون رجلا فسموا أهل سبعين (ابن القطان، نظم الجمان ، ص127). فأهل الجماعة أو العشرة يقطعون مع ابن تومرت في الأمور العظام دون غيرهم ، فإذا جاء أمر أهون أحضروا أهل خمسين ، فإذا جاء دون ذلك أحضروا السبعين رجلا ، و فيما دون ذلك لا يتأخر أحد ممن دخل في أمره (ابن القطان، نظم الجمان ، ص128).

3. الدعاية الموحدية وأساليبها: إن هناك أساليب ودعائم ارتكز عليها ابن تومرت في الترويج لفكر المهدوية وتوثيقه في النخب والعامة ومريديه ، وهي كثيرة ومتنوعة، ولم يتردد ابن تومرت في استعمال أي وسيلة رآها مناسبة لتحقيق أهدافه بغض النظر عن شرعيتها.

3.1. سلاح الافتاء بالتكفير:

تعتبر فرقة الخوارج من الفرق الكبرى في التاريخ الإسلامي التي استعملت سلاح التكفير ضد مخالفيها في فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي، فقد ظهرت هذه الفرقة في زمن الخلافة الراشدة في عهد علي بن أبي طالب واعتبروه كافرا خارجا عن ملة الإسلام هو وغيره ممّن خالفه من أهل الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان، فاستحلوا دماء وأموال وحرمات مخالفيهم (الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص37 وما بعدها)، وابن تومرت سلك هذا المسلك تجاه المرابطين ولم يتردد في تكفيرهم بشبه عقائدية مدعيا أنّهم على عقيدة التجسيم، وكتابه أعز ما يطلب والذي ضمّنه عقائده ومنهجه والذي كان مصدر أتباعه في العقيدة حافل بهذه الدعوى، ولن يسعنا المقام هنا للخوض في معنى التجسيم وبيان حقيقته ولا في حكم التكفير وبيان مستحقيه، فهذه قضايا عقدية وشرعية لها أهلها و هي من أخطر القضايا التي تسببت في إراقة الكثير من الدماء في تاريخنا الإسلامي، وما يهمنا في هذا السياق بيان تساهل ابن تومرت في قضية التكفير وعدم تورعه في إصدار فتاوى إهراق الدماء وما يتبعها من استحلال للأنفس، اعتقادا منه أنّ هذا الأمر قد يفضي إلى ضمان الحماس الديني في محاربة المرابطين (غرداين، 2024، ص319)، ولم يكتف بهذا بل رأى أيضا أن تغنم أموالهم لصالح الموحدين (كرراز، 2020، ص129)

واستهل ابن تومرت في كتابه تكفير المرابطين المسلمين بباب طوائف المبطلين الملثمين والمجسمين وعلاماتهم، ذاكرا أنّ جميعها ظاهرة، فمنها ما ظهر قبل مجيئهم ومنها ما ظهر بعد أخذهم البلاد، و منها ما ظهر من أحوالهم وأفعالهم (ابن تومرت، دون تاريخ، 384)، وحكم عليهم بأنّهم من أهل النار (ابن تومرت، دون تاريخ، 387)، ليصل إلى وجوب جهادهم على الكفر والتجسيم وإنكار الحق واستحلال دماء المسلمين وأعراضهم و أموالهم (ابن تومرت، دون تاريخ، 392)، وجاء بآيات وأحاديث كثيرة أنزلها في غير موضعها ففتح بذلك بابا لم يكن عليه فتحه، لتدخل المنطقة في صراع دموي جلب عليها الكثير من المصائب والدمار كانت في غنى عنه.

3.2. استغلال إحراق المرابطين كتاب الإحياء للغزالي:

بدأت الدعاية الموحدية في مرحلة مبكرة من حياة ابن تومرت، فقد عمل على استغلال حرق المرابطين كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي الذي قيل حسب عبد الواحد المراكشي المؤرخ الموحدي إنه لقيه بالشام أيام تزهده، وأضاف أنّه ذُكر للغزالي ما فعل أمير المسلمين بكتبه التي وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها، وابن تومرت حاضر ذلك المجلس، فقال الغزالي حين بلغه ذلك:" ليذهبن عن قليل ملكه، وليُقتلن ولده، وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضرًا مجلسنا"، وكان ابن تومرت يحدث نفسه بالقيام عليهم فقوي طمعه (المراكشي، المعجب، ص136)، وقد سعى ابن تومرت بذكاء شديد على بث أخبار هذا اللقاء لما كان يتمتع به الغزالي من شهرة واسعة في ارجاء العالم الإسلامي آنذاك ، وإظهار المرابطين وكأنّهم أقدموا على حرق كتاب مقدّس (دندش، 1988، 38)، والواقع أنّ هذا الكتاب لم يلق القبول من الطبقة العلمية كلها بل اختلف العلماء كثيرا حوله، فأثنى عليه بعضهم، وبالغ آخرون في ثلبه وحذروا منه ومن صاحبه جملة وتفصيلا، واقتصر بعضهم على نقد مسائل معينة وبينوا وجه الخطأ فيها، وممّن انتقد كتاب الإحياء وبيَّن ما فيه من انحراف عقدي تبعا لفهمهم ونصحوا باجتناب قراءته من المغاربة الإمام الطرطوشي(ت 520هـ/1123م) والمازري (ت 536هـ/1141م) والقاضي عياض(ت 544هـ/1149م) وكلهم معاصرون للغزالي، ويضاف إليهم قاضي قرطبة ابن حمدين (ت 508هـ/1114م)، وانتقده من المشارقة ابن الجوزي (ت 597هـ/1201م) والذهبي (ت 748هـ/1201م) وغيرهم (مرتاض، 2022، 38)، والحاصل أنّ ابن تومرت نفسه لم يعمل بآراء الغزالي، وأنّ الضجة التي افتعلها ضد المرابطين بسبب إحراقهم كتابه كانت ستارا لإذكاء نار الفتنة وتهييج العامة، فمبدأ الإجتهاد الذي يعلق عليه الغزالي أهمية كبيرة في استنباط الأحكام ينكره ابن تومرت كمصدر من مصادر الشريعة، ومعارضة ابن تومرت جهود المجتهدين في تجديد الشريعة والإستنباط في مجال الإجتهاد من الأمور المنطقية له، لأنّه يتشح بثوب الإمام المعصوم الذي لا تبحث آراؤه ولا تناقش أحكامه، ونظرية الإمام المعصوم من أكثر ما عارضه الغزالي (دندش، 1988، 39).

3.3. التوظيف السياسي للرؤى والمنامات:

كان التوظيف السياسي للرؤى و المنامات إحدى أهم وسائل الدعاية التي استخدمها الموحدون لخداع أتباعهم و إقناعهم بمشروعية نهجهم، ومعروف تعلّق العوام بهذه المنامات وروايتها والسؤال عنها والبحث عن تأويلها، ويظهر هذا الأمر جليا في المصادر الموحدية لا سيما كتاب البيذق الذي يعتبر أقدم مصدر موحدي عاصر ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي، وقد ركّز على رؤى رآها عبد المؤمن بن علي أو أقرب الناس إليه كأمّه (البيذق، 1971، 14)، والهدف من وراء ذلك يتمثل في إضفاء الشرعية على ما قام به عبد المؤمن من ثورة على المرابطين ورفعه إلى مراتب الأولياء بإظهاره شخصا ملهما محدَّثا بشّرت به أمّه وهو في بطنها ورأى البشرى وهو شاب حدث، فكان لازما أن تتحقق هذه الرؤى على أرض الواقع وأن يكون لهذا الفتى شأن، وهذا ما حدث فعلا، فلم يلبث أن تمكن عبد المؤمن من الإنتصار الحاسم على المرابطين، وأقام لنفسه ملكا لم تعهده بلاد المغرب من قبل خلال التاريخ الوسيط، والبيذق في هذا كله أحكم ذكر تفاصيل هذه الرؤى مبيّنا مآلها في الواقع، ولكن لماذا أعرض عن ذكر رؤى لابن تومرت المهدي المعصوم الزعيم الروحي والقائد الفعلي للموحدين في بداية أمرهم ؟ أليس المهدي المعصوم أولى بأن تكون له رؤى تبشره بالملك والنصر ؟

لا أظن أنّ الإجابة عن هذا السؤال من الصعوبة بمكان، فإنّ محمد بن تومرت الذي ادّعى المهدوية وهلك قبل أن تقوم لدولته قائمة من الصعب نسبة رؤى إليه تبشّر بانتصاره وعلو رايته وقيام دولته، فكان من الأذكى والأنسب والأجدر جعل الرؤى من نصيب الخليفة عبد المؤمن بن علي الذي أقام الدولة وبسط السلطان وفتح المدائن وملك العدوتين، ويزيد هذا الأمر تأكيدا أنّ البيذق ألف كتابه بعد قيام دولة الموحدين وفي الوقت الذي بلغت فيه الدولة الموحدية قمة مجدها، فلا يعجزه أن يكتب التاريخ برواية المنتصر ولصالحه، ولا يضرّه أن يؤلف روايات ويضع أخبارا ينسبها لسيّده تسهم في تبرير شرعيته السياسية.

3.4. السحر والكهانة:

لقد قامت دولة الموحدين على أساس دعوى الهداية والتي لم تكن لتمنع ابن تومرت من ممارسة السحر والكهانة وادّعاء معرفة الغيب، وقد عملت الدعاية الموحدية على نشر وبث تكهناته ونبوءاته بين الناس سالكة في سبيل ذلك كل الطرق الموصلة لتحقيق هذه الغاية، فقد ذكر عبد الواحد المراكشي أنّ ابن تومرت كان أوحد عصره في علم خط الرّمل (عبد الواحد المراكشي، 2006، 137)، وخط الرّمل نسبة إلى المادة التي يضعون فيها عملهم، وهو شكل من أشكال الكهانة الهدف منه معرفة الغيب وكشف أسراره (ابن خلدون، المقدمة، 139)، وكان يزعم أنّه مأمور بنوع من الوحي والإلهام، وكان ينتحل القضايا الإستباقية ويشير إلى الكوائن الآتية (ابن الخطيب، 1898، 57)، وكان يحدّث نفسه بالدولة لما كان الكهان يتحينون ظهور دولة يومئذ بالمغرب (ابن خلدون، ج5، 302)، وغلا ابن تومرت في كهانته فقد كان يخبر أتباعه بجزئيات وقع أكثرها حسب عبد الواحد المراكشي، وكان يقول لهم لو شئت أن أعدّ خلفاءكم خليفة خليفة، فزادت فتنة القوم به وأظهروا له شدة الطاعة (عبد الواحد المراكشي، 2006، 141).

ويزعم الموحدون وأنصارهم أنّ الغزالي دعا بأن يزيل الله ملك المرابطين على يد ابن تومرت فكان يحدث نفسه بالقيام عليهم، ولما لقي عبد المؤمن بن علي في بجاية عرفه بالعلامات التي كانت عنده (عبد الواحد المراكشي، 2006، 137)، فلابن تومرت كتاب في وعاء أحمر طلب من رفيقه في رحلة العودة إلى المغرب وصاحبه المعروف بالبيذق في رحلته إحضاره إليه، فقرأ منه على عبد المؤمن وبشّره بالخلافة ولقّبه بسراج الموحدين، وأوعد المخالفين له بالويل أولهم وآخرهم، ومن تمّ قرّر عبد المؤمن بن علي ملازمة ابن تومرت وعدم الرحيل إلى المشرق (البيذق، 1971، 16).

ولم يتحدث البيذق عن هذا الكتاب ولم يذكر لنا عنوانه أو محتواه، وجاء في مصادر أخرى أنّه كتاب الجفر الذي سبق ذكره، فقد نقل ابن خلكان أنّه رأى في كتاب المغرب عن سيرة ملوك المغرب أنّ محمد بن تومرت كان قد اطلّع من علوم أهل البيت على كتاب يسمى الجفر، وأنّه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمى السوس وهو من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه (ت ى ن م ل)، ورأى فيه أيضا أنّ استقامة ذلك الأمر واستيلاءه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه (ع ب د م و م ن)، ويجاوز وقته المائة الخامسة، فأوقع الله في نفسه أنّه القائم بأول الأمر وأنّ أوانه قد أزف (ابن خلكان، ج5، 47). وقال عبد الواحد المراكشي إنّ ابن تومرت وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجفور من بعض خزائن بني العباس (عبد الواحد المراكشي، 2006، 137).

وبناء على تقدّم ذكره فإنّ البيذق كان من الأوائل الذين روجوا لأسطورة هذا الكتاب الذي يضعه ابن تومرت في وعاء أحمر وإن لم يصرّح بعنوانه، وكل ما رُوي عن هذا الكتاب سواء كان جفرا أو مجرّد أوراق أو غير ذلك فإنّه لا يخرج عن كونه من كتب علم الحدثان والكهانة السياسية، ومن صدّق هذه الأسطورة أو روّج لها فهم في ذلك عيال على رواية البيذق، وهذا ما يؤكد أنّ ابن تومرت لم يتورع في استعمال جميع الأساليب في محاولته السيطرة على عقول العوام من أتباعه وإقناعهم بشخصه والإيمان بعصمته ومهديته.

ومن كهانة ابن تومرت وسكوته عن تغيير المنكر في معقله، ذلك أنّ أحد أتباعه أتى برجل سكران فأمر بحدّه، وعندما طلب منه أحد أصحابه أن يشدّ على الرجل حتى يدّلهم على مصدر الخمر أعرض عنه ابن تومرت، وعندما كرّر طلبه وألحّ عليه كشف ابن تومرت أنّ مصدر الخمر عبيد صاحبه الذين سقوا الرجل، وهذا الأمر زاد القوم تعظيما لابن تومرت وفتنة به، إضافة إلى أشياء كان يخبر بها فتقع كما زعم بعض المؤرخين (عبد الواحد المراكشي، 2006، 145).

وذكر ابن القطان أنّ ابن تومرت قد ذُكر في كتب الحدثان الأندلسية ناقلا عن كاتب أندلسي يدعى بأبي عبد الرحمان بن طاهر كتب رسالة إلى عبد المؤمن بن علي مدعيا أنّه يثبت فيها أمر المهدي ابن تومرت بالدليل والبرهان (ابن القطان، 1989، 101)، وقد نقلها ابن القطان كاملة وممّا جاء فيها (ابن القطان، 1989، 119): "وأمّا ما وقع في كتب الحدثان، فإن جعلنا ذلك اقتناعا فقد وقع بأيدي كثير من

أهل هذه الجزيرة أصلحها الله تعالى وسددّها ونظمها عجلا بسيرة المهدي كتاب صغير في حجمه يحتوي على عظائم في علمه، يذكر أنّه المهدي يخرج في جبل درن فيفعل ويصنع وذكر أنّ أتباعه وأنصاره مصمودة، وذكر أنّه سيسبي حتى يبلغ السبي في بلاد البربر أن تباع الجارية البربرية بخمسة دراهم".

وهذا ما لم يحدث في حياة ابن تومرت فقد توفي سنة 524هـ والحرب مستعرة بين أتباعه والمرابطين، مما يدل على زيف هذه التكهنات التي وضعها أولياء الدعوة الموحدية لكسب الأنصار والأتباع من عامة الناس الذين قد ينساقون بسذاجة لمن يدّعي مثل هذه الإدّعاءات، وما ذلك إلا مخالفة للشرع والإشتغال بما لا يغني وفتح باب الفتن على الناس (زروق، 2006، 203).

3.5. الدعاية لشخصية اصلاحية بين حفظ المعروف وجهاد فساد الزمان:

يؤمن كثير من أهـل السنة والجماعة بأشراط الساعة التي وردت فيما صح من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ومن هذه الأشراط التي تكون قبيل قيام الساعة ظهور المهدي، والأحاديث الواردة فيه كثيرة جدا حتى قال بعض العلماء عنها إنّها تبلغ حـد التواتر، وهي في كتب السنة كالسنن والمعاجم والمسانيد وغيرها. ومن الأحاديث المروية في صفة المهدي وما يقوم به من أعمال حديث رواه أبو داود في سننه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿المهدي منّي أجلى الجبهة أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا ويملك سبع سنين﴾، وحديث آخر رواه أبو داود أيضا في سننه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: ﴿لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلا مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا﴾ (أبوداود، 1999، 476)، وقد آثرت إيراد هذين الحديثين فقط من أحاديث كثيرة وردت في الإمام المهدي لما فيهما من دلالة على فشو المنكر وانتشار الظلم والجور في المجتمعات الإنسانية قبل ظهوره، وهذا ما حاولت الدعاية الموحدية بتوجيه من ابن تومرت إسقاطه على المرابطين خاصة والمناطق التي مرّ بها خلال عودته من رحلته المشرقية إلى بلده بأقصى المغرب عامة، ومصداق هذا ما رواه البيذق في كتابه أخبار المهدي فقد جاء حافلا بذكر أصناف من المنكرات التي تصدى لها صاحبه ابن تومرت آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر في كل مدينة مرّ بها.

فمن الإسكندرية إلى تونس مرروا بمدن المغرب الأوسط ووصولا إلى مدن أقصى المغرب مضت الرواية الموحدية بنص البيذق في إظهار ابن تومرت ناهيا عن المنكر آمرا بالمعروف، وتتكرر معها صور المنكرات في كل هذه البقاع كاختلاط الرجال بالنساء وانتشار اللهو والجهل بأمور الدين الظاهرة والمعلومة، لينطبع في نفوس العامة والخاصة أنّ الأرض قد فشا فيها الجهل وعمّها الظلم، وأنّ زمان المهدي قد حان ووقت خروجه قد أزف، وفي مكان يعرف بدشر قلال كاد أهلها أن يفتكوا بابن تومرت وأصحابه فخرجوا منه هاربين (البيذق، 1971، صفحة 22)، وفي مدينة فاس أقبل طلبة العلم نحو ابن تومرت يأخذون عنه العلم، وإذا لقي الصغار يُمِرُّ يده على رؤوسهم ويقول لهم أسعدكم الله أيّ زمان تدركون يا بني، وقام مع أصحابه بالهجوم على حوانيت بيع آلات اللهو وقاموا بتكسيرها، فلما رفعوا أمرهم إلى قاضي

المدينة أقرّ فعل ابن تومرت (البيذق، 1971، 23)، وفي مدينة مكناسة تتكرر أيضا ظاهرة اختلاط الرجال بالنساء، فيتصدى لها ابن تومرت ويدخل فيهم يمينا وشمالا حتى بددّهم (البيذق، 1971، 25)، وذكر ابن خلدون أنّ شرارا من غوغاء مكناسة أوقعوا به وأوجعوه ضربا (ابن خلدون، 2000، 303)، وعند حلوله مراكش حاضرة الدولة المرابطية التقى ابن تومرت بأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين فأنكر عليه نقابه وناقش الفقهاء بحضرته فغلبهم ثم أمر علي بن يوسف بطرده من البلاد (البيذق، 1971، 27).

وبعدها انصرف ابن تومرت إلى بلاد المصامدة داعيا إلى مذهبه مناديا بالخروج على المرابطين بعد أن ناداه أصحابه بإيعاز منه بالمهدي المعصوم سنة 515هـ/1121م (ابن القطان، 1989، 123)، فبايعوه على التوحيد وفق معتقده كما بايعوه أيضا على قتال المرابطين (ابن خلدون، ج6، 304)، والتي كانت مدنهم وفقا للدعاية الموحدية مدنا ضالة فاسقة خبيثة نذلة في الغاية، وأنّ المرابطين سرحوا الناس وأنفسهم إلى الأفعال البهيمية (ابن القطان، 1989، صفحة 103)، وأنّ الله حين أذن بخروج المهدي قد كانت الأرض قد امتلأت جورا وظلما، وكان للملثمين وغيرهم من الظلم ما حصل من الشهرة والظهور (ابن القطان، 1989، 112).

ونسج عبد الواحد المراكشي على طريقة البيذق وذكر أنّ المناكير ظهرت في بلاد علي بن يوسف بعد الخمسمائة وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الإستبداد، كما ذكر أيضا استيلاء النساء على الأحوال وإسناد الأمور إليهن، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر، وأمام هذا الفساد المستشري فإنّ موقف أمير المسلمين حسب المراكشي دائما هو القناعة بالإمارة وبما يُرفع إليه من خراج وعكوفه على العبادة والتبتل وإهماله أمور الرعية غاية الإهمال، فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس وكادت تعود لحالها الأول لاسيما منذ قيام دعوة ابن تومرت (عبد الواحد المراكشي، 2006، 135)، فعبد الواحد المراكشي الذي نشأ وخدم في البلاط الموحدي والذي وزع هذه الإتهامات ورمى بها المرابطين، فإنّه لا يخفى ما لهذه الإتهامات من أغراض دعائية لصالح الموحدين، والذي أثارها هو ابن تومرت والذي استطاع بذكاء ودهاء أن يشيع مثل هذه الإتهامات، فأتى بعض الناس السذج ورمى المرابطين بها (دندش، 1981، 108).

وإذا كان علي بن يوسف عاكفا على العبادة قانعا بالإمارة راضيا بما يصل إليه من خراج، فكيف إذا يصفه المراكشي بصفات مناقضة للصفات الأولى التي أوردها نفسه، فقد قال عنه (عبد الواحد المراكشي، 2006، 130): (إنّه جرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد وإخافة العدو وحماية البلاد، وكان حسن السيرة جيد الطوية نزيه النفس بعيدا عن الظلم، وكان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك المتغلبين، واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء)، فهذه الشهادة تبيّن أنّ علي بن يوسف كان من أعدل الحكام حكما وأشرفهم سيرة وأكثرهم عبادة، وكل هذه الصفات لا تزيده إلا رفعة، كما أنّها كافية لإبطال حجج الموحدين في الخروج على حاكم مسلم هكذا صفاته، بل أوغلوا في تكفيره ومن والاه وأطلقوا عليهم ألقابا كثيرة تعريضا

بهم، فسمّاهم ابن تومرت بالمجسمين والزراجنة شبههم بطائر أسود البطن أبيض الريش يقال له الزرجان، لأنّهم حسبه بيض الثياب سود القلوب، وسماهم أيضا الحشم للثامهم كما يفعل النساء المتحشمات (ابن القطان، 1989، 132).

فاضطربت بسبب دعوة ابن تومرت أحوال العدوتين واتصلت الحروب، ولم يزل أمير المسلمين علي بن يوسف يوالي الحروب على أصحاب ابن تومرت من كل جانب ويبعث الجيوش لمحاربتهم والكتائب فدامت أكثر مدته في حروبه معهم (مجهول، الحلل الموشية، 111)، وإنّ المنكرات التي زعم ابن تومرت أنّه نهض لتغييرها وادّعى انتشارها في ديار المسلمين لا يمكن مقارنتها بما أقدم عليه هذا الشخص من إشعال نار الحروب والحث والتحريض على قتل المسلمين الموحدين بعد الحكم عليهم بالكفر والخروج من ملة الإسلام، فسلك بذلك مسلك الخوارج ولم يتورع في سفك الدماء الذي يعد من أعظم المنكرات في دين الإسلام.

3.6.إدّعاء ابن تومرت العصمة:

إنّ ادّعاء العصمة من أعظم ما نُقم على ابن تومرت ومن روّج لهذا الإدّعاء من مؤرخي الدولة الموحدية، وهي تدّل على تعصب كبير لإمامهم، وهي في نظر ابن خلدون المنافح عن ابن تومرت الفلتة التي حُفظت عنه موافقا بها الشيعة الإمامية (ابن خلدون، ج5، 305).

وابن تومرت هو نفسه من ادّعى العصمة ولم ينسبها له أحد، ثمّ جاء أتباعه وصدّقوه فيما ادّعاه، ويرى ابن تومرت أنّ الإمام لابد أن يكون معصوما من الفتن ومن الجور ومن البدع ومن الكذب والعمل بالجهل ومن الباطل (ابن تومرت، دون تاريخ، 297)، ويعدّ البيذق من الأشخاص المعظمين لابن تومرت ولا يتردد في الإيمان بمهدويته وعصمته والترويج لها، فلا يذكره غالبا إلا بالمهدي المعصوم مع الترضي عنه، واعتبر ابن القطان عصمة ابن تومرت كرامة من كراماته التي خصه الله بها (ابن القطان، 1989، 91).

ويرى علماء أهل السنة والجماعة أنّ العصمة خاصة بالأنبياء والرسل دون غيرهم من البشر، وهي من شروط النبوة والرسالة وليست من شروط الإمامة، وإنّما يشترط في الأخيرة عدالة ظاهرة، فمتى أقام في الظاهر على موافقة الشريعة كان أمره في الإمامة منتظما، ومتى زاغ عن ذلك كانت الأمة عيارا عليه في العدول به من خطئه إلى صواب أو في العدول عنه إلى غيره (البغدادي، 2002، 307).

وإذا كان ابن خلدون من المؤرخين السابقين الذين نقموا على ابن تومرت العصمة واعتبرها مخالفة للشرع وإن كان قد عبّر عنها بألطف عبارة، فإنّ الدكتور النجار من المعاصرين لم يتردد في الدفاع عن ابن تومرت وشرح مفهوم العصمة عنده فقال إنّ عصمة ابن تومرت ليست كعصمة الشيعة الإمامية المتصفة بالشمول والإطلاق بل هي في درجة أقل، فعصمة ابن تومرت تتسع لبعض الأخطاء والمعاصي، وما هذه العصمة التومرتية إلا تعبير مخالف فقط لشروط أهل السنة في هذه المسألة، ولكن طبيعة المرحلة

و الظروف الصعبة التي مرّ بها ابن تومرت في أثناء دعوته هي التي دفعته إلى تعبير خاطئ وصل إلى حد الغلو في تقريره معنى العصمة(النجار، 1983، 250).

وليس بخاف على أحد ممّن عرف شروط أهل السنة في الخليفة أنّ العصمة لم يذكرها أحد من السابقين أو اللاحقين من علماء الإسلام، فكان من الأنسب للدكتور النجّار أن يقرّ على الأقل بمجانبة ابن تومرت الصواب في هذه المسألة، وأن لا يحاول تأويل عباراته عن العصمة موهما القارئ أنّ مذهب ابن تومرت في قوله بالعصمة ليس إلا تعبيرا مغايرا عن شروط أهل السنة في الإمام، وهذا كلام في جوهره بعيد عن الصواب.

3.7. ابن تومرت والتشبه بصفات النبوة:

لم يتردد ابن تومرت في محاولة تعظيم نفسه وإحاطتها بشيء من القداسة وذلك في محاولة جريئة لخداع أتباعه بالتشبه بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله، وليس هذا الأمر بخاف على من قارن بين السيرة النبوية وبما قام به ابن تومرت من أعمال في سعيه الحثيث للوصول إلى السلطة.

وقد مرّ معنا كيف جعل ابن تومرت من نفسه إماما معصوما، والعصمة لا تكون إلا للأنبياء والرسل، ويحاول ابن تومرت أن يظهر بصفة الرجل المُـلهَم المبشر لأصحابه بالنصر والتمكين، لتكون هذه البشارات من الآيات الدالة على صدقه في ادعاءاته، وممّا أشاعه أتباعه عنه ما نقله البيذق أنّ ابن تومرت جعل له برجا يقال له برج تيطاف وجعل فيه طبلا، وكان يمسك الطبل رجل من رجاله، فلما كان في بعض الليالي أفلت الطبل وقامت رجة، فقام الرجل يقول: لا لا الطبل أفلت مني، وعندما وصل الخبر ابن تومرت زعم أنّ هذه بشارة من بشائر النصر (البيذق، 1971، 41).

وجاء عند عبد الواحد المراكشي (عبد الواحد المراكشي، 2006، 141) أنّ ابن تومرت كان يُبشر أتباعه بفتح فارس والروم على أيديهم وأنّهم يقتلون الدجال، ومنهم الأمير الذي يصلّي بعيسى بن مريم، وكان يسميهم المؤمنين ويقول لهم أنتم العصابة المعنيون بقوله عليه الصلاة و السلام: ﴿لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله﴾، والحديث صحيح رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة باب قوله صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حديث رقم 1925، ولفظه عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة﴾.

وفي السيرة النبوية أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبشّر أصحابه بفتح فارس والروم وهم في أشدّ محنة، ونص الحديث عند الإمام أحمد قال (ابن حنبل، المسند، ج6، 361): ﴿عن البراء بن عازب قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه و سلم بحفر الخندق وعرضت لنا صخرة في الخندق لا تأخذ فيها المعاول، قال : فشكوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء رسول الله ثم هبط إلى الصخرة فأخذ المعول فقال : بسم الله، فضرب ضربة فكسر ثلثها وقال : الله أكبر أُعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصرُ قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر فقال : الله أكبر أُعطيت مفاتيح فارس، والله

إني لأبصر قصرَ المدائن الأبيض، ثم ضرب الثالثة وقال : بسم الله، فقطع بقية الحجر فقال : الله أكبر أُعطيتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة ﴾، وهو عليه الصلاة والسلام الذي كان يخبر بما سيقع من فتن وملاحم إلى قيام الساعة بوحي من الله.

وعندما قاد ابن تومرت ثاني معاركه ضد المرابطين كان حسب رواية البيذق الرجل الذي يُنصَر بالرعب الذي يُقذَف في قلوب أعدائه ويقبض التراب بيده ويرميه في وجوههم فهزموا (البيذق، 1971، 35)، وفي السنة النبوية جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري قال (البخاري، ج1، 158): ﴿ قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : أُعْطِيتُ خمسا، لم يُعْطَهُنَّ أحد من الأنبياء قبلي نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلَت لي الأرض مسجدا وطَهُورا، فأَيَّمَا رجل من أمتي أدركته الصلاة فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت لي المغانم ولم تحلَّ لأحد قبلي، وأُعْطِيتُ الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة﴾.

وروى ابن جرير الطبري في تاريخه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: ﴿هذه قريش قد جاءت بجلبتها وفخرها تحادّك وتكذّب رسولك اللهم إنّي أسألك ما وعدتني، فلمّا أقبلوا استقبلهم فحثا في وجوههم التراب فهزمهم الله﴾ (الطبري، 2007، 86)، وفي موضع آخر قال الطبري: ﴿إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من حصباء فاستقبل بها قريشا ثمّ قال شاهت الوجوه ثمّ نفحهم بها وقال لأصحابه شدّوا فكانت الهزيمة﴾ (صحيح الطبري، ج2، 104).

وأضفت الدعاية الموحدية على قصة موت ابن تومرت طابعا خرافيا، وحاولت أن تجعل منه مُلهَمًا عالما بيوم وفاته ففاق الرسل والأنبياء في هذه المعجزة، ففي عام وفاته لمّا رجع الموحدون إلى تينملل خرج إلى لقائهم فسلّم عليهم ورحّب بهم وعرَّفهم بما يكون لهم من النصر والفتح وما يملكونه من البلاد ومدة ملكهم، وأعلمهم أنّه يموت في تلك السنة فبكوا لذلك وأسفوا (ابن أبي زرع، 1972، 179)، وقبل وفاته وقف وأمر الموحدين أن يجتمعوا فحضروا كلهم ثمّ وعظهم حتى أضحى النهار ثمّ دخل ببغلته الدار راكبا و بقى ساعة ثمّ خرج ثم قال: اعرفوني وحققوني فإني مسافر عنكم سفرا بعيدا، فضجّ الناس بالبكاء وقالوا: إن كنت تسير إلى الشرق نسير معك، فقال: ليس هذا سفر لا يسافره أحد معي إنما وحدي، ثمّ دخل ولم يره أحد أبدا (البيذق، 1971، 41).

ولتزداد رواية وفاة ابن تومرت خرقا للعادة فإنّ هاتفا حضره قبل وفاته محددا له يوم وفاته، وأنشده أبياتا لم يلبث أن رد عليها بأبيات مثلها، فعندما كان في بيته إذ سمع صوتا رقيق من وراء البيت يقول:

كأني بهذا البيت قد باد أهلـــه وقد درست أعلامــه ومنازلـــه

فأجابه المهدي:

كذلك أمور الناس يبلى جديدها وكل منّــا ستبــلى خصائلـــــه

فأجابه الهاتف فقال:

تزوَّد من الدنيـــــا فإنك راحــل وإنك مسـؤول فما أنت قائلــه

فأجابه المهدي:

أقـــول بأنّ الله حـق شهدتـــه وذلك قول ليس تخفى فضائله

فأجابه الهاتف فقال:

فخــذ عـــدّة للموت إنك ميت وقد أزف الأمر الذي أنت نازلـه

فأجابه المهدي:

متى ذاك خبـــرني هديت فإنني سأفعل ما قد قلت لي وأعاجلـه

فأجابه الهاتف فقال:

تبيت ثلاثـــا بعد عشرين ليلـة إلى منتهى شهر فما أنت كاملــه (البيذق، 1971، 42).

وعندما مات ابن تومرت عظّم أتباعه قبره وقدّسوه وندبوا زيارته، وقالوا إنّ ما بين قبره ومسجده المكرم روضة من رياض الجنة (بروفنسال، 1941، 92)، وهم بذلك لم يجدوا حرجا في تشبيه هذا المكان بالروضة الشريفة في المدينة المنورة، والذي صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: ﴿ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة﴾ (البخاري، ج1، 368).

هكذا عملت الدعاية الموحدية أن تجعل من ابن تومرت بإيعاز منه شخصا مقدّسا يتصف بصفات خارقة للعادة ويأتي بالمعجزات، وحاولت أن تجعل منزلته كمنازل الأنبياء الموحى إليهم من السماء وإن لم تصرّح بذلك، وحشوا كتبهم بأخباره وزينوها في نفوس أتباعهم فغلب عليها طابع الأسطورة والخرافة والأخبار الواهية الموضوعة المكذوبة.

خاتمة

وأخيرا وبعد هذا العرض عن بعض أساليب الدعاية الموحدية التي سعت إلى تبرير شرعية ما أقدم عليه ابن تومرت من ادّعاءات وأعمال نخلص إلى النتائج التالية:

1- انتحال ابن تومرت النسب الشريف أولى خطواته الدعائية لتحقيق مشروعه السياسي.

2- افتراء مؤرخي الدعوة الموحدية على الشيخ الغزالي واختراع قصة لقائه ابن تومرت .

3- تعددت أساليب الدعاية الموحدية ولم تلتزم بضوابط شرعية أو أخلاقية، ومن أهمها ما يلي:

- اتباع سياسة التكفير بإعلان المرابطين المسلمين كفرة مجسمة والإفتاء بوجوب الخروج عليهم وجهادهم.

- التشهير بحادث إحراق المرابطين كتاب الإحياء للغزالي ومنعه من التداول في أراضي الدولة المرابطية في العدوتين، واعتبار ذلك كبيرة من الكبائر التي وجب على المسلمين التصدّي لها.

- استغلال الرؤى والمنامات وتوظيفها سياسيا بما يخدم أهداف الدعاية الموحدية الرامية إلى تصويب أفعال ابن تومرت وصاحبه عبد المؤمن بن علي.

- اللجوء إلى الدجل والشعوذة وممارسة السحر والكهانة لإضفاء شيء من المصداقية على ادّعاءات ابن تومرت الغيبية.

- تصوير مناطق نفوذ المرابطين خاصة وغيرها من المناطق عامة بأنّها مناطق قد فشا فيها المنكر وعمّها الظلم والجور، وأنّ الأرض قد تهيأت لظهور المهدي حسب الروايات الحديثية.

- محاولة ابن تومرت وأتباعه رفعه مراتب الأنبياء تلميحا لا تصريحا بادّعاء عصمته، ووضع روايات عن أقواله وأفعاله الخارقة للعادة البشرية تضاهي بعض أقوال ومعجزات النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

4. استطاعت الدعاية الموحدية في عهد ابن تومرت أن تحقق بعض النجاحات وأهمها إشعال فتيل الثورة ضد المرابطين ونشر الفوضى والإضطراب في بلاد المغرب الأقصى والأندلس، كما تمكنت هذه الدعاية من إقناع كثير من عامة قبائل المصامدة بمهدوية ابن تومرت، وبعد وفاته ووصول عبد المؤمن بن علي إلى السلطة تمكن الموحدون من تأسيس دولتهم والقضاء على المرابطين نهائيا سنة 541هـ.

و لا يزال البحث في شخصية ابن تومرت في المصادر التاريخية سواء كانت موحدية أو غيرها يكشف لنا الكثير من الحقائق حول دعوى الرجل التي وصفها الكثير من المتقدّمين والمتأخرين ممّن تعاطف معه بالإصلاحية، في حين وصفها آخرون بأنّها سعي حثيث من الرجل للوصول إلى السلطة، ودليلهم أنّ الدعاية السياسية التي روجت لفكره وصوبت أعماله لجأت إلى التضليل والخداع والكذب وتشويه الوقائع وإخفاء الحقائق من أجل الترويج لمهدويته والإيمان بصاحبها ومن تمّ التسليم له والإنقياد المطلق لتعاليمه.

قائمة المصادر:

1) ابن الأثير. (2003). الكامل في التاريخ. الطبعة الرابعة. الجزء9. بيروت. دار الكتب العلمية.
2) أحمد زروق. (2006). عدة المريد الصادق. تحقيق: الصادق بن عبد الرحمان الغرياني. الطبعة الأولى. بيروت. دار ابن حزم.
3) أحمد بن حنبل. (1998). المسند. الطبعة الأول. الجزء6. بيروت. عالم الكتب.
4) البخاري. (1979). الصحيح. الطبعة الأولى. الجزء1. القاهرة. المطبعة السلفية.
5) البغدادي. (2002). أصول الدين. تحقيق: أحمد شمس الدين. الطبعة الأولى. بيروت. دار الكتب العلمية.
6) البيذق. (1971). أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. الطبعة الأولى، الرباط. دار المنصور للطباعة والوراقة.
7) البيذق. (1971). المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب. تحقيق: عبد الوهاب بن منصور. الطبعة الأولى، الرباط. دار المنصور للطباعة والوراقة.
8) ابن تومرت. (دون تاريخ). أعز ما يطلب. تحقيق: د/ عبد الغني أبو العزم. الطبعة الأولى، الرباط. مؤسسة الغني للنشر.
9) عبد الرحمان بن خلدون. (2000). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. الطبعة الأولى،الجزء6. بيروت. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

10) ابن خلكان. (دون تاريخ). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق: د/ إحسان عباس. الطبعة الأولى،الجزء5. بيروت. دار صادر.
11) ابن الخطيب. (1898). رقم الحلل في نظم الدول. الطبعة الأولى، تونس. المطبعة التونسية.
12) ابن أبي دينار. (1869). المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. الطبعة الأولى، تونس. المطبعة التونسية.
13) أبو داود. (1999). سنن أبي داود. الطبعة الثالثة، الرياض. بيت الأفكار الدولية للنشر.
14) الذهبي. (1985). العبر في خبر من غبر. تحقيق: أبو هاجر محمّد السعيد بن بسيوني زغلول. الطبعة الثانية،الجزء2،بيروت. دار الكتب العلمية.
15) ابن أبي زرع. (1972). الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. الطبعة الأولى، الرباط. دار المنصور للطباعة والوراقة.
16) الزركشي. (1966). تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تحقيق: محمد ماصور. الطبعة الأولى، تونس. المكتبة العتيقة.
17) الطبري. (2007). صحيح تاريخ الطبري. تحقيق: محمد بن طاهر البرزنجي. الطبعة الأولى. الجزء2. بيروت دمشق. دار ابن كثير.
18) ابن عذارى المراكشي. (1983). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق: د/ إحسان عباس. الطبعة الثالثة، الجزء4. بيروت. دار الثقافة.
19) عبد الواحد المراكشي. (2006). المعجب في تلخيص أخبار المغرب. الطبعة الأولى. صيدا بيروت. المكتبة العصرية.
20) ابن القطان. (1989). نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان. تحقيق: محمود علي مكي. الطبعة الثانية. بيروت. دار الغرب الاسلامي.
21) ابن القنفذ القسنطيني. (1968). الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية. تحقيق: محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي. الطبعة الأولى، تونس. الدار التونسية للنشر.
22) مجهول. (1979). الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة. الطبعة الأولى، الدار البيضاء. دار الرشاد الحديثة.

23) قائمة المراجع:

1. عبد المجيد النجار. (1983). المهدي بن تومرت. الطبعة الأولى، بيروت. دار الغرب الإسلامي.
2. عصمت عبد اللطيف دندش. (1988). الأندلس في نهاية عصر المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني. الطبعة الأولى. بيروت. دار الغرب الإسلامي.
3. ليفي بروفنسال. (1941). مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة الموحدية. الطبعة الأولى، الرباط. المطبعة الاقتصادية.
4. محمد عبد الله عنان. (1990). دولة الإسلام في الاندلس العصر الثالث القسم الأول عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية. الطبعة الثانية. القاهرة. مكتبة الخانجي.

24) **المقالات:**

1. سمير بن لكحل ومغنية غرداين، (ماي 2024)، الدعاية الموحدية قراءة في المسار والوسائل والنتائج، مجلة رفوف، المجلد 12، العدد 01، مخبر المخطوطات، جامعة أدرار الجزائر، (311-325).

2. د/ عبد الحكيم مرتاض. (جويلية 2022). كتاب الإحياء للغزالي عرض ودراسة لمواقف العلماء منه. مجلة قرطاس للدراسات الحضارية والفكرية. المجلد10. عدد2. مخبر الدراسات الحضارية والفكرية. جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان. (36-46).
3. د/ فوزية كرراز، (ديسمبر 2020)، أثر السلطة الموحدية في نشر الإنحرافات الاجتماعية في المغرب الإسلامي، مجلة عصور، مجلد 19، عدد 02، (124-143).